تطور النظام الواحي وعلاقته بالقصور في الصحراء المنخفضة –الزيبان – قصر طولقة نموذج

أ/ بوخليفي قويدر جهينة
أ.د بن ميسي احسن
جامعة قسنطينة

الملخص :

سنتناول في هذه الورقة البحثية تطور المراكز العمرانية في الصحراء الجزائرية –الزيبان– قصر طولقة نموذجا للوقوف على التحولات المجالية والعمرانية والديمغرافية التي أدت إلى تفكك العلاقة بين مكونات النظام الواحي (النخيل،القصر، الماء) و سنقدم مجموعة من البدائل الكفيلة بإعادة تثمين الأنوية القديمة – القصور– وواحات النخيل في إطار التنمية المستدامة والمحافظة على الثروات الطبيعية المحلية للمنطقة.

Abstract :

On va procéder dans cette feuille de recherche sur la développement des centres urbains dans le Sahara Algérien-Les Ziban- , Ksar de Tolga est un modèle pour s'arrêter les transformations urbaines et démographiques qui ont provoqué l'avortement des relations entre les structures du système des Oasis (palmiers , ksar , eau) et de cet effet , Nous allons présenter un ensemble de substituts qui pourront revaloriser les anciens noyaux - Les Ksour - et les oasis des palmiers dans le cadre de l'épanouissement continu et la protection des ressources naturelles locales de la région .

مقدمة:

الواحة هي إنشاء بشري إرادي كرابط لوجستيكي في طرق القوافل التجارية بين المناطق الشمالية و المناطق الجنوبية على طول المحاور الكبرى ، وهي تقوم على الثلاثية الأساسية(الماء، القصر، النخيل) ،طيلة 12 قرن العلاقة بين مكونات النظام الواحي كانت وطيدة وهذا لقلة عدد السكان في القصور ولأن معظم قاطني الصحراء من البدو الرحل. لكن مع بروز ظاهرة الاستقرار في أربعينيات القرن الماضي بدأ سكان القصور يتضخم ليصبح القصر لا يتجاوب مع هذه الزيادة الديمغرافية، بالإضافة إلى تدخلات السلطات الاستعمارية على المجال الصحراوي سواء ببناء مدن جديدة شطرنجية مغايرة على ما هو موجود أو من خلال طريقة استغلال الموارد المائية بإدخال المضخات لتوسيع المستثمرات، هذه التحولات كان لها الأثر الكبير على ذهنية الإنسان الصحراوي الذي بقي يمارسها بعد الاستقلال.

من خلال هذا المقال سنحاول تسليط الضوء على أحد قصور الزيبان مع تتبع تطوره التاريخي للوقوف على مدى الترابط بين مكونات النظام الواحي و كيف تحول القصر إلى مركز عمراني، ومدىاختلال النظام المجالي الأصلي الموروث والأسباب التي أدت إلى تفكك العلاقات التنظيمية الموجودة. وانطلاقا من هذه الإشكالية تم طرح التساؤلات التالية:

ماهي أهم التغيرات المجالية التي طرأت على القصر وما مدى تأثيرها على التنظيم المجالي؟

ماهي أليات وميكانيزمات التوسع الحضري في خضم التغيرات المجالية؟

ماهي البدائل الكفيلة لإعادة تثمين الأنوية القديمة ضمن الأبعاد الجديدة للتنمية المستدامة ؟

ونهدف من خلال هذا البحث إلى تطوير التنمية الحضرية لمدينة طولقة وإعادة هيكلة الأنوية القديمة لدمجها في السياحة المستدامة والاهتمام بواحات النخيل وإعادة الاعتبار للواحة القديمة.

1) مفهوم النظام الواحي:يتكون النظام الواحي من عدة مكونات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها وهي(النخيل،الماء، القصر،الانسان)فالواحة هي أيقونة الصحراء باعتبارها نظام فلاحي اجتماعي اقتصادي بيئي(Agro-EcoSystem) يلعب الإنسان دورا أساسيا فيه باعتباره منظم لهذا المجال، وينتج عن هذا التفاعل علاقات اجتماعية منظمة في جماعات تعيش في وسط جاف جد صعب[1].

2) تطور النظام الواحي في مدينة طولقة:تقع طولقة بين خطي عرض 34.41° و35.5° شمالا وبين خطي طول 4.56° و5.33° شرقا[2]، وعلى ارتفاع 150م على مستوى سطح البحر و تتميز بمناخ صحراويحار و جاف ،تضم في الوقت الحالي مقر البلدية طولقة و فرفار" حي النور" بالإضافة إلى منطقتي التشتت ذراع البطيخ وبئر لبرش وتتربع على مساحة 121430كلم2،تتكون تضاريسها من منطقة سهلية ذات قشرة كلسية" الدبداب" أين يتواجد النسيج العمراني الحالي وواحات النخيل،و منطقة جبلية أولية تتكون من جبل أم جنيب،جبلهساقةوجبلقردقبوسعيدثممنطقةسهولواسعةتتمثلفيبلادالسلقةوبلادالمظهروبلادالمازوشية ومنطقةجبليةمنالجهةالشمالية[3] .

2-1) مراحل التطور:

2-1-2)المرحلةالأولى قبل الفترة الاستعمارية (من أشجار الزيتون الى واحات النخيل) :

طولقة مدينة بربرية قديمة يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن السابع قبل الميلاد ،بنيت من طرف النوميديين على مجرى مائي ساخن وكانت تسمى"تيولاشة" عند الرومان، تداولعلى حكمها الرومان والوندالوالبيزنطيينوالذين تركوا أثارهم في المنطقة المتمثلة في الحصن البيزنطي[4]، بالإضافة إلى بقايا حمام روماني مصنوع من الحجارة و نجد فيه قنوات لتصريف المياه ومواقد[5]،وتم إدخال المسيحية إلى طولقة وتجسد ذلك في بناء كنيسة لاتزال أثارها موجودة إلى حد الآن. و تمبناءمسجد(المسجد العتيق حاليا) في القرن السابع ميلاديعلى يد عقبة بن نافع بعد إسلام حاكمها طالق بن يلوق حيث مكث فيها ثلاث جمعات وجعل فيها قاضيا[6]،وقدتم ذكرهامن طرف الرحالة العرب، فيقول عنها "البكري " في القرن11م ""و هي ثلاث مدن عليها أسوار وطوب وخنادق وحولها أنهار وهي كثيرة البساتين والأعناب والنخيل والشجر وجميع الثمار، إحدى هذه القصور يسكنها المولدونوالثانية اليمن والثالثة قيس"[7] القصرالثالث- السبخة -يتميز باحتوائه على حصن دفاعي "برج الشيخ شكري" من أجل الحماية الجماعية لمجال القصر ضد الأعداء أو البدو الرحل[8]. ويقول عنها " الورتلاني"أن هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها فقد جمعت بين التل والصحراء و ذات نخيل كثيرة وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها وأرجاء متعددة تطحن بالماء ومزارع الحناء إلى غير ذلك من الفواكه والبقول وكثرة اللحوم والسمن في أسواقها[9].

1-2-1-2)الهيكل الخارجي:القصر يقع داخل واحات النخيل والمساكن في إنشاءها مبنية من المواد المحلية كالطين وجذوع النخيل مما يساعد على تلطيف الجو الحار فيهكحال أغلب القصور الصحراوية، للقصر الأول ثلاث أبواب تغلق ليلا ومع التوسع العمراني أصبح الباب الشمالي وسط القصر، إن 80% من المجال مبني داخل القصر نتيجة تراص المساكن لتسهيل المهمة الدفاعية وتفاديأشعة الشمس ،والنتيجة هي ارتفاع الكثافة السكانية) و مثال ذلك قصر أولاد جلال الذي قدرت الكثافة السكانية فيه عام 1953مبـ 149 ن/كلم2[10]،المجال داخل كل القصور الصحراوية مهيكل بإحكام ويسمح بتدرج المجالات من الأكثر خصوصية إلى الأكثر عمومية بواسط سلسلة من المجالات الوسطية(بهو، سقيفة ، شارع صغير، شارع ، مركز مدينة)،فالسقيفة تخدم العائلة والدرب يخدم جزيرة واحدة والشارع يخدم حيا كاملا ويعد الدرب الشكل المميز للعمران التقليدي فهو يضمن وحدة وحرمة مجموعة سكنية في آن واحد علىمستوى المدينة كما أن هناك فصل تام بين الوظيفة السكنية ووظيفة العمل، يتميز مبدأ التنظيم المجالي في القصور أو المدن العتيقة من ناحيةالمجالية بالمركزيةالتي يتضمنها المسجد الجامع أو الأسواق الحضرية، هذه المساحات تكون بشكل عام صغيرة باستثناء المدن الصحراوية حديثة التأسيس التي تتميز بأتساعها.

2-2-1-2) الهيكل الداخلي للمسكن التقليدي :يتمثل في وجود الفناء الذي قد يكون كبير أو صغير حسب المناطق الجغرافية الطبيعية وتتوزع حوله الغرف في العمق، ومقارنة بالمدخل نجد الغرف التي تتطلب حرمة أكثر موجودة على اليمين، وفي البيت توجد عادة غرفة أو غرفتين بالقرب من المدخل وبعد ذلك يوجد المطبخ مع المخزن والإسطبل في بعض الأحيان[11]، بالإضافة إلى وسط الدار الذي يعتبر النمط الذي يضمن المجمع للحياة في المسكن العتيق ويحقق إلى حد بعيد الاتصال الاجتماعي بين كل أفرد العائلة مدعما بعنصر معماري محلي هدفة مناخي بالدرجة الأولى وهو الروزنة التي تأتي عادة فوقية لتضمن التهوية في معزل عن أشعة الشمس[12].

2-2) المرحلة الثانية الفترة الاستعمارية (المدينة الشطرنجية والتحول في نمط استغلال الأرض):أبدت فرنسا اهتماما بالغا بطولقة باعتبارها عاصمة الزاب الغربي وغناها بثروات النخيل ، وقد تجسد هذا الاهتمام في مجموعة من المشاريع العمرانية على طول الطريق الولائي رقم (61)- حاليا- بالقرب من النواة القديمة لمراقبة الأهالي من جهة وتوفير المرافق الضرورية للكولون من جهة أخرى، وتتمثل هذه التجهيزات في مدرسة صغيرة بنيت

عام1905 حولت أثناء الثورة التحريرية إلى " مكتب لاصاص"وفندق المسافر وآخر مقابل له، بالإضافة الى دار البلدية ومقر البريد ومنزل المعمر Buchere.

* **التحول في نمط استغلال الأرض من الناحية الفلاحية:**نظرا للأهمية الاقتصادية للمنطقة تم إدخالالمضخات لتدعيم المنابع الارتوازية والحصول على كميات كبيرةمن المياه لتوسيع المستثمرات الفلاحية ، وكان أول بئر مدعم بهذه التقنية عام 1913لمستثمرة ساعد طبي بتدفق يقدر بحوالي (13000ل/د) وهذا ما أثر سلبا على منسوب مياه عين بن الطرشة والتي كان يقدر صبيبها بـ(12000ل/د)أي ما يعادل 1200ل/ثاوهو كمية منقب في سماط القاري الحراري إلا أن تدفق هذا المنبع تناقص ليصل إلى 4500ل/د[13]فقط وبئرالمعمر Buchereبصبيب10000ل/د، كما نجد على طول طريق طولقة فوغالة من جهة اليسار مستثمرة[14]Lullو Cataldo هذه المستثمرات تتميز بمساحتها الواسعةو هندستها المنتظمة و سيادة نوعية دقلة نور لمتطلبات اقتصاد السوق ،قام المعمر Buchereعام 1920بممارسة الزراعة الصناعية المتمثلة في القطن، في مستثمراته« Normande » وأنشأ لذلك مؤسسة صغيرة للنسيج إلا أنه وجد صعوبة في إقناع السكان لزراعتها لاعتمادهم على الزراعة المعاشية[15].

***المدينة الشطرنجية والتحول في نمط استغلال الأرض عمرانيا:**

تبعا للسياق الكولونيالي شهدت مدينة طولقة تحولات عميقة على المستوى العمراني حيث خطط لإنشاء مدينة جديدة شطرنجية في مرتفع لمراقبة القصور الثلاث، والتحكم في المنابع المائية فتم اختيار مجال فارغ (ex nilo) على بعد1 كلم من النواة القديمة عام 1913[16]و قد تجسدت النمطية الريفية من خلال حضور الحوش، الذي تغرس فيه نخلة أواثنتين أو بعض الأشجار على المحاور الرئيسية . كما عرفت في هذه المرحلة ظهور النوافذ الأولى المطلة على الشارع وهذا يتنافى مع مبدأ الأنوية التقليدية[17]أماالإنشاء فقد بقي يعتمد على المواد المحلية ولكن بتقنيات مغايرة،كما قامت بإنشاء بعض المرافق الإدارية والتجارية مما أنتج بيئة حضرية جديدة ذات صبغة حضارية تختلف عن النواة القديمة ذات الصبغة الريفية ،وأهم مايميز هذه المرحلة هو تطبيق مخطط **مشروع قسنطينة** من خلال إنشاء حوالي عشرون مسكن بمساحة حوالى 80م2 تم توزيعها على سكان القصور[18]،و لربط اقتصاد المنطقة بالاقتصاد الكولونيالي تم مد سكة الحديد إلى طولقة بدأ من أوماش مرورا بالزاب القبلي و الظهراوي عبرالقصور التاليةمليلي ، زاوية بيقو، بوشقرون ، طولقة.

2-3)المرحلة الثالثة بعد الاستقلال: والتينقسمها إلى المراحل التالية :

1-3-2) مرحلة 1962-1974(القطيعة مع النمط العمراني القديم):

عرفت المدينةفي هذه المرحلة ركود عمرانيكانعكاس للتهيئة الإقليمية التي اتبعتها الجزائر الاشتراكية، حيث اعتمدت على تنمية مناطق الشريط الساحلي كموروث استعماري بالصناعة كأداة للتنمية الشاملة وإهمال المناطق الصحراوية ما أدىإلى تدهور الفضاءات العمرانية في الأنوية القديمة،لهذا ظهر حي سيدي رواق الفوضوي عام 1973 أمام استقرار البدو الرحل حول سفح التلة،هذا الأخير صنف كتجمع ثانوي عام 1977[19].وتجدر الإشارة إلى أنه وفي إطار تثبيت سكان البدو الرحل تم إنشاء مركز " بئر لبرش " على بعد 18 كلم من طولقة على طريق لوطايةفي سنة 1970على نمط قرية اشتراكية،و في الأصل كان هذا الأخير عبارة عن منطقة عبور لمواشي العشابة لتوفره على نقطة ماء، مجالياتم ربط النواة القديمة بالمدينة الجديدة رسوطة التي أصبحت عبارة عن قطاع حضري بالطريق الولائي رقم "61 "وظهرت على طوله العديد من المساكن بشكل خطي شكلت حاجز بين السكن و غابات النخيل التي حدت من التوسع العمراني غربا .

2-3-2)مرحلة 1974-1984 (الديناميكية العمرانية بين البناء العشوائي والبناء المنظم):

إن تنمية النسيج الحضري ومحاولة تنظيمه تجسد في مظهرين هما ارتقاء البلدية إلى مصاف دائرة، وتدخل السلطات من أجل هيكلة المجال من خلال برنامج الحضيرة السكنية الجديدةZHUN عام 1980 والذي تمت فيه برمجة العديد من المشاريع سواء السكنات الجماعية أو الفردية أو المرافق العمومية على طول الطريق الولائي رقم "03"،كما أقيمت التعاونيات و التحصيصات التي ظهرت بعد 1983 لتلبية الطلبات المتزايدة على الأراضي القابلة للتعمير متمثلة في حي المجاهدين الأول والثاني و ذلك للحد من ظهور الأحياء العشوائية . فلاحيا في إطار تطبيق قانون (APFA) تم توزيع أراضي زراعية على الفلاحين في منطقة المقطوفة شمالا ، وذراع البطيخ جنوبا مما جعل[20]المدينة تحاط بالنخيل من جديد و هوما شكل عائق كبير أمام التوسع العمراني المتزايد ، هذا التوزيع كان على حساب أراضي الدولة وأراضي البلدية، وهوما أدىإلى ديناميكية فلاحية من خلال توسيع مساحة المستثمرات الفلاحية.

2-3-3) مرحلة 1984 - 2000(النمو الديمغرافي المتسارع والاستصلاح الزراعي):

عرفت المدينة توسعا حضريا كبيرا ، ومن أجل التأهيل الحضري اتسعت الحضرية السكنية الجديدة(ZHUN) لتصحيح المسار التطوري للمدينة مجاليا واجتماعيا وتجسدت في ظهور عام 1986حي النخيل،السعادة والنهضةوتحصيص324وتحصيص226،وتعاونية الأساتذةومنطقة لنشاطات(ZAD) التي تقع شمال الطريق الولائي رقم "3" بمساحة(24.8هـ)وظهور المساكن الجماعية بشوارع عريضة على نمط مدن الشمال التي تغاير النمط المحلي مما أدىانعدام التوازن الأيكولوجي وتفكك العلاقة بين مكونات النظام الواحي كما تم دمج سيدى رواق كقطاع حضري في النسيج العمراني وزود بالهياكل القاعدية الضرورية(شبكةالماء، شبكة الصرف الصحي ، شبكة الغاز) إلا أن الكثير من الطرق مازالت غير معبدة.

النواة القديمة في هذه المرحلة عرفت استقرار السكان النازحين من منطقة بوسعادة و بن سرور بسبب الظروف الأمنية خلال العشرية السوداء مما أدى إلى تجديد الكثير من مساكن القصر الأول و القصر الثاني واستعمال مواد جديدة في الإنشاء كالإسمنت بدل المواد المحلية (الطوب وجذوع النخيل) ما أدى إلى اختلال الأنشطة التقليدية في المدينة العتيقة وتسريع الاختلالالسوسيومجاليبينها وبين المدينة الحديثة، والملاحظ في هذه المرحلة هو نقص الأوعية العقارية المخصصة للبناء و ظهورالبناءات على طول الطريق الولائي رقم "61 " على حساب النخيل و لكن بشكل محتشم.

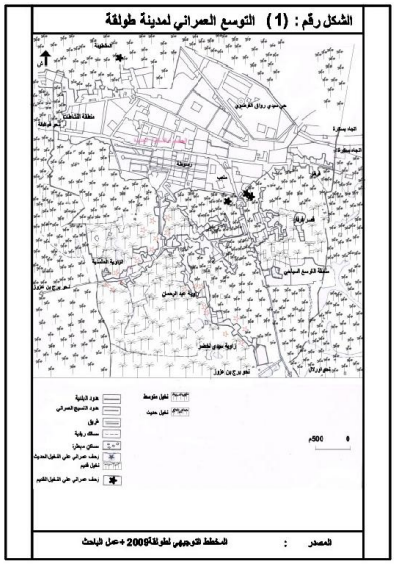

2-3-4) مرحلة 2000 – 2013 (الديناميكية العمرانية ،أزمة الواحة القديمة أوالحديثة):

بلغ التوسع الحضري للمدينة درجة التشبع العمراني باستثناء بعض الجيوب التي خصصت لبعض المشاريع العمرانية ما أدىلخلق أزمة حقيقية خاصة أمام التناقص الكبير للأراضي الموجهة للتعمير، وأمام هذا

الوضع ظهر الزحف العمراني على حساب النخيل خاصة على طول الطريق الولائي رقم "61 " وذلك لشيخوخة النخيلو غياب مشاريع فلاحية لتجديده.الشكل رقم (1). و ما أعطى هذا الزحف العمراني الصبغة القانونية هو ظهور قانون السكن الريفي و بناء الفلاحين في مستثمراتهم ، لكن للأسف حدثت الكثير من التجاوزات من طرف السكان باسم السكن الريفي ما أدى إلى قطع أشجار النخيل على طول طريق زاوية عبد الرحمن و زاوية لخضر،ولكن الأمرالأكثر أسفا والذي لاحظناه في المعاينةالميدانية هو ظهور أزمة الواحة الحديثة ، فحوالي أربع بساتين للنخيل الحديث وجيد المردودية تم قطع نخيله و بيع أراضيه على شكل تحصيصات للبناء وذلك لغلاء أسعار الأراضي المخصصة للبناء مقارنة بمنتوج التمور،و بالنسبة لهذه المستثمرات التي تم فيها التجاوز تقع على حواف الطرق،ولذلك يعتبر المحيط العمراني " منطقة المقطوفة " الحل الأنجع لمشكلة التوسع العمراني للمدينة التي تعاني من نقص واضح في فضاءات التوسع العمراني[21].

3) آليات وميكانيزمات التوسع الحضري:

3-1)الديناميكية الديمغرافية:تعتبر الدراسة السكانية أحد الركائز الأساسية في أي دراسة تعميرية أو مجالية ولهذا سنتناولها عبر التطور الزمني في المركز.

الجدول رقم (1) : تطورعدد سكان طولقة من عام 1937 الى عام 2013م:

طولقة	1937	1966	1977	1987	1998	2008	2013
التجمع الرئيسي	3298	8384	12607	2498	39626	50530	57600
التجمع الثانوي: فرفار	/	565	1436	2419	2352	935	1066
سيدي رواق	/	/	878	/	/	/	/
مجموع البلدية	/	8949	14921	27400	42371	55726	63823

المصدر: الديوان الوطني لإحصاء، منوغرافية ولاية بسكرة2013. **9323/34** ANOM FR

من خلال الجدول رقم (1) نلاحظأن هناك زيادة سكانية معتبرةللسكان بمركز طولقة ومنه نستطيع تميز أربع فترات وهي :

*فترة 1966-1977 :عرفت البلدية نمو ديمغرافي معتبر حيث قدر بـ4.76% مع زيادة سكانية بلغت 5972 نسمة ،نتيجة لتحسن الظروف المعيشية والصحية بعد الاستقلال .

*فترة 1977-1987:بعد ارتقاء البلدية إلى مصاف دائرة بعد التقسيم الإداري لسنة 1974م شهدت المدينة نمو ديمغرافي بلغ 3.83%وزيادة ديمغرافية قدرت بـ+1247ن حيث اكتسبتالدائرة الجديد ة مرافق وتجهيزات والتي ساهمت في جعلها قطب جاذب للسكان .

*فترة 1987– 1998:واصل التطور السكاني في النمو بفضل ما استفادت منه البلدية من مختلف البرامج التنموية وظهور مناطق الحضيرة السكنية الجديدة والتحصيصات،بالإضافة إلى الديناميكيةالفلاحية التي شهدتها المنطقة بسبب توزيع الأراضي في إطار قانون APFA . فبلغت الزيادة السكانية +14971 نسمةخلال عشر سنواتفقط وهي أكثر المراحل ارتفاعا وقد قدر معدل النمو بـ 3.23%.

*فترة 1998–2013: تطبيق البرامج الجديدة في تنمية مناطق الجنوب والبرنامج الخماسي في البلدية، جعل المنطقة جاذبة للسكان من البلديات المجاورة مما جعلهم يتوافدون عليها قصد العمل والاستقرار، وهذا ما ترجم بزيادة ديمغرافية قدرت بـ+13355نسمة ،إلا أننا نلاحظ انخفاض في نسبة النمو التي وصلت إلى 2.60%بسبب انتشار الوعيبين فئات المجتمع، وفيظرف خمس سنوات فقط ارتفع عدد السكان ليبلغ 63523 نسمة وهو ما يعكس الديناميكية الديمغرافية اتى تشهدها المركز.

2–3) التحضر السريع:التحضر هو عملية من عمليات التغير الاجتماعي يتم بواسطته انتقال أهل الريف إلى المدن و اكتسابهم تدريجيا أنماط الحضر، ولذلك يؤدي التحضر إلى زيادة حجم المدن وتدهور الكثير من البيئات الحضرية وعلى رأسها التهام العمران سنويا لمساحات من الأراضي الزراعية[22].

نجد أن مجال المدينة شهد معدل تحضر مرتفع يتراوح بين(84.49% و93.68%) في الثلاثين السنة الأخيرة وهي تعكس رغبة الدولة في تعمير المجال من خلال الترقية الإدارية وتوفير الخدمات والمرافق الضرورية ، و هو ما انعكس على توسع النسيج الحضري و أدى إلى استهلاك الكثير من الأوعية في فترة وجيزة .

3–3)الهياكل العقارية وتطوير المدينة:إن الهياكل القاعدية داخل المدن أو المناطق المحيطة بها ستظل عاملا حاسما في التوسع الحضري وتشكيل المدنباعتبارها القاعدة الأساسية التي تبنى عليها الدراسات المرتبطة بالتخطيط الحضري وإعداد وثائق التعمير،وبالعودة إلى حالة الدراسة سنجد سيطرة أراضي الجماعة –العرش– على الهيكل العقاري للبلدية في الجهة الشماليةلكن الذي ساهم في توسع المجال الحضري والريفي هي أراضي البلدية وأراضي الدولةالشكل رقم (2).

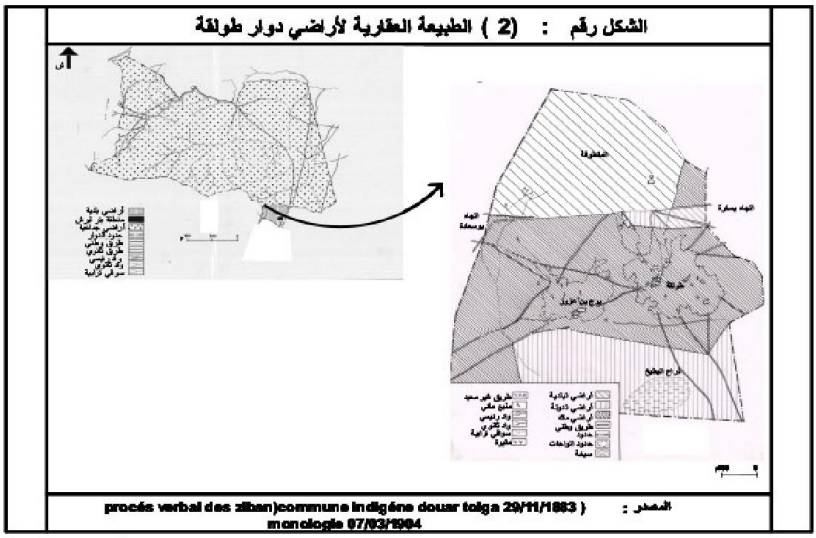

3-4)تطور الحضيرة السكنية :

تعتبر الحضيرة السكنية ضمن آليات وميكانيزمات التوسع الحضري و قد تطورت بشكل ملحوظ خلال 26 سنة الأخيرة في مركزطولقة بعد ظهور مجموعة من الأحياء والمجالات السكنية خاصة بعد إنشاء الحضيرة السكنية للتجاوب مع الزيادة الديمغرافية،لقد قدر عدد المساكن عام 1987 بـ386 مسكن ليرتفعفي إحصاء عام 1998 إلى 5270 مسكن ويتضاعف في مدة 10سنوات في إحصاء 2008 إلى 10358 مسكن بزيادة قدرت بـ+5088 مسكن ، وهو عدد كبير يعكس مدى نجاح سياسة التنمية العمرانية من خلال مختلف البرامج والصيغ السكنية(السكن الاجتماعي، التساهمي، الترقوي...).

4)انعكاسات تحول النظام الواحيعلى المجال:

4-1) أزمة الواحة للقديمة:ونقصد بالواحة القديمة الواحات التي تكون بجوار القصور،حيث أنه بفعل الديناميكية التي شهدها العمران والفلاحة الصحراوية والتطور في استخدام الوسائل الحديثة كالمناقب تأثرت كثيرا وأصبحت تعاني من أزمة حادةتعكسها عدة مؤشرات كصغر حجم المستثمرات و شيخوخة أشجار النخيل و المردودية الضعيفة للتمور، هذه المؤشرات شاهدة على الوضعية الصعبة التي تمر بها الواحة التقليدية[23].

2-4) التحولات الاجتماعية وتراجع دور الزوايا:

خلقت هذه التحولات فئات اجتماعية قيادية جديدة في وسط المجتمع المحلي المتشكلة من إطارات الإدارة المحليةالتي تقوم بتنظيم وهيكلة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية ، و هذا أمام التراجع الكبير لنفوذ الزوايا التي كانت تعتبر الفاعل الرئيسي في تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لما لها من نفوذ ديني على السكانالمحليين [24]،ويعود ذلك التراجع لعدة عوامل أهمها إلزامية التعليم ومجانتيه وعدم الاعتراف بالشهادات لخرجي الزوايا باستثناء المعاهد الإسلامية ،و نأخذ مثلا منطقة طولقة التي نجد فيها ثلاث زوايا أضمحل دورها وهي (زاوية عبد الرحمان ، زاوية لخضر، زاوية عبد الدايم)، ليبقى دور الزاوية العثمانية المتضائل المترجم بنقص عدد الطلبة من سنة إلى أخرى حيث قدر عام 1975م بـ285 طالب وعام1985 بلغ 198طالب لينخفض العدد الى 13 طالب فقط عام2013[25]. كما نلاحظ تراجع ظاهرة العائلات الممتدة فأصبح نمط العائلة النووية هو المسيطر نتيجة لتولد قناعات الرغبة في الاستقلالية عند الأجيال الجديدة من الشباب والميل لإقامة مساكن صغيرة منفردة ومستقلة بعيدا عن بيت العائلة الكبيرة بعد الزواج ، وقد أدى هذا الوضع إلى تزايد الطلب على المساكن وبالتالي على الأرض لأغراض السكن فظهرت الأحياء الجديدة وأخذت المدينة تنمو نموا سريعا[26].

5)البدائلالمقترحة لتثمين النظام الواحي:

– إعادة تثمين مجال الأنوية القديمة خاصة القصر الثالث–السبخة– الذي بقي محافظا على معالمه من خلال ترميمه وإعادة تنظيم المجال وفق التنمية الحضرية المستديمة.

– التأهيل الاقتصادي،وذلكبإنشاء مؤسسات صغيرة لتحويل التمور إلى (فرينة ،عسل...)وتثمين التنوع الجيني أمام طغيان نوعية دقلة نور وتشجيع الصناعة التحويلية المتعلقة بالنخيل.

–التأهيل البيئي السياحي، من خلال تجديد الواحات القديمة لإرجاعها ضمن الحضيرة المنتجة.

– التأهيل المجالي ،أي الإسراع في تهيئة منطقة التوسع المستقبلي للحد من ظاهرة الزحف العمراني على حساب النخيل.

خلاصة:

الظاهرة التعميرية في الصحراء هي نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة واحترامه لها(مناخ حار، نقص المياه ،الرمال)،فالمراحل التعميرية التي مرت بها الواحة توضح كيف استطاعت عبقرية الإنسان الإدماج بين العناصر البيئية الثلاث(الماء ،النخيل ،القصر)وبذلك تكون قد حققت توازن إيكولوجي للعمران في هذا الوسط القاسي،والتي للأسف أصبحت في السنوات الأخيرة مهددة من خلال سياسة التعمير الغير مدروسة لخصوصية المنطقة ما أفقد العمران خصوصيته وخلق مناخا وبيئة منافية لطبيعة المجال الصحراوي القاسي.

الهوامش:

[1])Fayçal Ababsa Smati, les possibles différés de l'agriculture Saharien en Algérie, Volume 2 , édition INRA,2007, p 191.

[2])مخطط شغل الأراضي لبلدية طولقة ، منطقة المقطوفة ،جانفي،2001،ص5.

[3]) Procès-verbal de tribu des Ziban, publication L'année 1889 ,de la loi de sénatus consulte du 22 Avril 1863,Departement de Constantine, commun Indigène de Biskra,p520.

[4])Marc Cote,Guide d'Algérie paysage et patrimoine ,Edition , Media –plus , Constantine ,2006,p33.

[5])Stephan Gsell, L'atlas Archéologique Algérienne , Feuille 48,1957N27.

[6]) محمد الواقدي ، فتوح إفريقيا ، ج 1 ، مطبعة المنار ، تونس ، ص155.

[7])أبو عبيد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا ، طبعة دوسلان ،الجزائر ن 1875، ص 52.

[8])Marc Cote, Signatures sahariennes terroirs et territoires vus du ciel presses universitaires de Provence, France, 2012, p122.

[9])حسين بن محمد الورتلاني ، نزهة الأنظار في فضل التاريخ و الأخبار، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 88.

[10]) Robert Capot –Rey ,le Sahara français, presses universitaires de France, paris ,1953,p239.

[11])كوت مارك ، ترجمةبوجمعة المجال المقلوب2010 ، ص12.

[12])زريبي نذير وآخرون ، دروس معمارية عمرانية و كفاءة اجتماعية ، دروسمعماريةعمرانيةوكفاءةاجتماعية،الملتقىالدوليحولالمجالالواحيوالتنميةالمستدامة،بسكرة14-16/11/2000 ،ص 353 .

[13])Hebert Cataldo, Biskra et les Ziban, collection d'Afrique,français,1988 ,p109-110

[14])Cataldo ,ipid ,p 111 ,198

[15]) Bucher .M.E, cultures pouvant être associées a celle du Dattier dans les oasis des Ziban in semaine du Dattier 5 au 11 novembre ,1931, Alger,p321.

[16])ANOM FR 9323/34.

[17])Alkma Djamel et al, Analyse d'un espace oasien :cas du groupement des Ziban Wilaya de Biskra, in séminaire internationale, espace oasien et développemt durable Biskra le 14 ,15 et 16 novembre,2000 .

[18])أرشيف بلدية طولقة.

[19])Plan directeur d'aménagement et d'urbanisme de Tolga ,Décembre, 1992.,p119.

[20]) المخطط التوجيهي لطولقة ، مرجع سابق ، ص37 .

[21])مخطط شغل الأراضي لبلدية طولقة ،منطقة المقطوفة جانفي ،2001 ، ص12 .

[22]) الهيتي صبري فارس، جغرافية المدن، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع ،عمان، الأردن،2010، ص37.

[23])عبدالله خياري ، أزمة الواحا ت التقليدية في الصحراء الجزائرية ، واحة طولقة نموذجا، مجلة إنسانيات ، العدد51-52 ، 2011 .

[24])سجلات الرسمية الزاوية العثمانية بطولقة .

[25])بدر الدين يوسفي ، مدينة أدرار وفق السياق الحضري الجديد تنظيم المجال الجهوي لأقاليم الصحراوية الجنوبية الغربية للجزائر ، مجلة إنسانيات ، العدد 51،52 . 2011 .

[26])عاطف على الخرابشة ، عثمان محمد غنيم ، دراسات في التخطيط العمراني والبيئي ، الطبعة الأولى، ج 1، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع ، عمان ،الأردن 2010، ص 134 .